

# ثمرات الصيام

ومنها الإيمان بالله تعالى وكمال، والاقرار بالعبودية له يتحقق في هذا الشهر تحديدا في الإمساك عن مفسدات الصوم سرا وعلانية، فالصائم يؤمن بربه ويراقبه حتى في دخيلة قلبه، ولو أمسك دون نية وقصد لما كان صائما، ولو نوى أنه مفطر نية قاطعة جازمة لكان مفسدا لصومه.

وهذا يربي المؤمن على مراقبة الله تعالى واستحضار مشاهدته للعبد في كل أحواله وتقلباته ومعاصيه وطاعته، فيولد لديه اقبالا على الطاعة ونشاطا فيها، وانكافا عن المعصية وحياء من مقارفتها وهو يمرأى وسمعه من ربه الذي يؤمن به ويخافه ويرجوه. والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم يتمثل في التزام الصوم الشرعي وفق ما جاء به النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم توقيفا وبدا وانتهاء وأحكاما وآدابا. والصوم كان فرضا على الأمم الكتابية السابقة، لكن لا يلزم من هذا أن يتفقا معنا في تفصيلات الصيام ومفردات الأحكام وهذا يستتبع صدق الإيمان به صلى الله عليه وسلم ومحبة واتباعه في سائر الأعمال والعبادات التي جاء بها، والحرص على السنن التي تجعله أقرب إلى الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في شؤون حياته كافة.

والإيمان بالغيب والآخرة والجزاء والثواب والعقاب ظاهر في إيفار الجوع والعطش والعناء الذي يثمر مرضاة الله وثوابه بالجنة والتعيم على التمتع بطيبات الحياة الدنيا مع انتظار الوعيد والعقوبة في الآخرة، وهذا يعدل الميزان لدى المسلم، فلا ينظر إلى الأمور نظرة دنيوية بحتة في مصالحها ومفاسدها وحالاتها ومآلاتها، بل يوفق بين نظرة الدنيا ونظرة الآخرة، فيقدم مرضاة الله وطاعته ولو كان فيها فوات شيء من نعيمه العاجل، أو من راحته، أو من ماله، أو من جاهه، لأن حساباته ليست مادية خالصة.

النظام الخلقي يتجلى في الصبر الذي هو قرين الصوم وسميه حتى سمي الصوم صبرا، كما قال بعض المفسرين في قول الله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة»: قال: بالصوم والصلاة.

وسمي رمضان شهر الصبر، والصبر جزؤه الجنة. والصبر هو سيد أخلاق الإسلام، وبغير صبر لا يثبت المسلم أمام التحديات في دينه ودعوته، ولا يتحمل مشكلات الحياة وتبعاتها ومصائبها التي لا ينفك عنها بحال، فالفوز في الآخرة والسعادة في الدنيا ثمرتان من ثمار الصبر.

الصبر هو اكسير الحياة الذي يحول باذن ربه الصعاب إلى لذائذ، والهول إلى أفراح، وكما أتمنى من الشباب الشاكرين والشيوخ الباكرين، والسوة المتبرعات أن يكتبوا حكمة تتعلق بالصبر، ويجعلوها أمام نواظرهم، ليعلموا أن الصبر هو علاج كل داء، وحل كل مشكلة، وتذليل كل عقبة.

ويتجلى النظام الأخلاقي في الرقي بالنفس إلى مدارج العبودية والتخفف من أوهاق الطين، وثقل الأرض، لتستشرف النفس آفاق الإيمان وتستشعر شيئا من الأنس بالقرب من فاطرها وبارئها، وتسبح في ملكوتها، فالإنسان إنسان بروحه وشفافيتها قبل أن يكون إنسانا بجسده. أقبل على النفس استكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان.

ويتجلى في الابتار والاحسان ومعايشة آلام الآخرين ومقاسمتهم السراء والضراء، وذوق شيء مما يجدون، ولئن ذاقه الصائم تعبدا واختيارا، فلقد ذاقوه عجزا واضطرارا، ولئن عاناه وقتا محدودا، فلهو عندهم عناء ممدود.

ولهذا كان رمضان شهر الزكاة كما سماه عثمان رضي الله عنه، ونهايته زكاة الفطر التي يشارك المسلمون فيها الإحساس بفرحة العيد، فلا يدع أحدا منهم إلا وأساه، حتى يقرأهم بخروج صدقة الفطر أن قدروا.

ويتجلى في الإمساك بزمام النفس عن اندفاعاتها وحماساتها مع صاحبها ومع الخلق، فالصائم مزموم بشعور دائم، يحمله على الكف عما لا يجمل ولايليق، وربما أدرك كثير من الصوام هذا المعنى حتى قبل أن يهل الشهر.

كما يحقق الصوم معنى الانتساب الأممي وتبعاته ومظاهره، فهو عبادة يشترك فيها المسلمون في كل مكان مما يعمق معنى الإخاء الديني، والولاء الشرعي، ويذكر



وسوف يجد الصائم مفطرين لا يعرفون لرمضان حرمة ولا لصيامه حكمة، اذا اشتهوا طعاما أكلوا، واذا شاقهم شراب كرعوا.. ماذا يجدون يوم اللقاء؟..

انهم يجدون أصحاب المدخرات في أفق آخر، مفعم بالنعمة والمتاع، ويحدثنا القرآن الكريم عن أضياعوا مستقبلهم فيقول «وَيَذَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ أَفْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ» الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِهَوَا وَلَعِبَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

أن الصيام عبادة مضادة لتيثار الحياة الآن، لأن الفلسفات المادية المسيطرة في الشرق والغرب، تعرف الأرض ولا تعرف السماء، تعرف الجسم ولا تعرف الروح، تعرف الدنيا ولا تعرف الآخرة.

ليكن اللقوم ما أرادوا، ذلك مبلغهم من العلم.. بيد أننا نحن المسلمين يجب أن نعرف ربنا، وأن نلزم صراطه، وأن نصوم له، وأن ندخر عنده..!.. على أن هناك حقيقة مؤسفة هي أن الصوام قلة وان امتنع عن الطعام كثيرون ومن المعلوم أن الصوم نموذج لعبادات الاسلام التي تتجلى فيه عقائده وأصوله.

فبها أبناء هذا العصر، والتي جاء فيها قوله تعالى: «ذُرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَلَهُمْ الْإِمْلَ فَيُوفَ يُعْلَمُونَ»، وقوله «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ».

وتحتاج الناس بين الحين والحين أزمات حادة تقشعر منها البلاد، ويجف الزرع والضرع، ما عساهم يفعلون؟ انهم يصيرون مرغمين أو يصومون كارهين، وملء أفئدتهم السخط والضيق.. وشريعة الصوم شيء فوق هذا، انها حرمان الواحد، ابتغاء ما عند الله. انها تحمل للمرء منه مذوحة -لو شاء- ولكنه يخرس صياح بطنه، ويرجى اجابة رغبته، مدخرا صبره عند ربه، كيما يلقاه راحة ورضا في يوم عصيب... «ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ».

وربط التعب بأجر الآخرة هو ما عناء النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»!..

ان كلمتي «إيمانا واحتسابا» تعنيان جهدا لا يستعجل أجره، ولا يطلب اليوم ثمنه، لأن باذله قرر حين بذله أن يجعله ضمين مدخراته عند ربه.. نازلا عن قوله «ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَا».

لعل أهم ثمرات الصوم ابتاء القدرة على الحياة مع الحرمان في صورة ما.. كنت أرمق النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يسأل أهل بيته في الصباح: أنتم ما يفطر به؟ فيقال: لا! فينوي الصيام، ويستقبل يومه كأنه لم يحدث..

ويذهب فيلقى الوفد ببشاشة ويبيت في القضايا، وليس في صفاء نفسه غيمة واحدة! وينتظر بيقظة تامة رزق ربه دونما رغبة، ولسان حاله: «فَأَن مَّعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنْ مَّعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

قلت: لو جاءني افطاري دون شاي لسخت!! ولرفضت امضاء ورقة علي مكتبي، بله كتابة مقال!!..

انها لعظمة نفسية جذيرة بالاكبار أن يواجه المرء البأساء والضراء مكتمل الرشد، باسم الفجر، والأفراد والجماعات تقدر على ذلك لو شاءت!..

وأعتقد أن أسباب غلب العرب في الفتوح الأولى قلة الشهوات التي يخضعون لها، أو قلة العادات التي تعجز عن العمل أن لم تتوفر. يضع الواحد منهم ثمرات في جيبه وينطلق إلى الميدان، أما جنود فارس والروم فإن العربات المشحونة بالأطعمة كانت وراءهم، والا توقفوا!..

وقد اعتمد غاندي على هذا السلاح عندما حارب «بريطانيا» العظمى.. كان الانتاج البريطاني يعتمد على الاستهلاك الهندي.. وقرر غاندي أن ينتصر بتدريب قومه على الاستغناء ثلبس الخيش ولا ثلبس منسوجات «مانشستر»، تاكل الطعام بدون الملح ما دامت الدولة تحتكره، نركب أرجلنا ولا نركب سياراتهم.

وقاد حركة المقاومة رجل نصف عار جائع، ينتقل بين المدن والقرى مكتفيا بكوب من اللبن.

واستجابت الجماهير الكثيفة للرجل الزاهد، وشرعت تسير وراءه فاذا الانتاج الإنجليزي يتوقف، والمصانع تتعطل، والوف مؤلفة من العمال الإنجليز يشكون البطالة.. واضطرت الحكومة الى أن تطلب من «غاندي» المجيء الى لندن كي يتفاوض معها، أو يملي شروطه عليها!!!

وحياة أحمد شوقي وهو ذاهب الى لندن بقصيدته التي يقول فيها محذرا من الألعاب الساسية:

وقل: هاتوا أفاعيكم أتى «الحاوي» من الهند... ان الانسان الذي يملك شهواته قوة خطيرة، والشعب الذي يملك شهواته قوة أخطر، فهل تغفل؟؟..

أحفظ للشيوخ الكبير «محمد الخضر حسين» -شيخ الأزهر الأسبق- كلمة عظيمة:

«لست أنا الذي يهده، أن كوبا من اللبن يكفيني أربعاً وعشرين ساعة»!..

ومن قبله قال الشيخ عبد المجيد سليم وقد حذرؤه من غضب جهات عالية:

«أيمعني ذاك من التردد بين بيتي والمسجد؟ قالوا: لا.. قال: لا خطر إذن، ليس هناك ما يخاف»..

من أركان العظيمة أن يجعل الرجل مآربه من الدنيا في أضيغ نطاق مستطاع... انه يعيي عدوه بذلك الاستعفاف أو الاستغناء.

وذاك نهج الشرف الذي خطه علي بن أبي طالب عندما قال: «استغن عن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره».. وما يستقيم على هذا النهج إلا امرؤ يحسن الصيام..

أعجبنتي هذه الوصية لأبي عثمان النوري لابنه، وأثبتها الجاحظ، وليس لي في كتابتها الا فضل النقل:

«يا بني: كل مما يليك، واعلم أنه اذا كان في الطعام لقمة كريمة أو شيء مستطرف فانما ذلك للشيخ المعظم أو الصبي المدلل، ولست واحدا منهما. يا بني عود نفسك مجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش كالسباع، ولا تقضم كالبيغال، ولا تلقم لقم الجمال، فان الله جعلك إنسانا فلا تجعل نفسك بهيمة، واعلم أن الشبع داعية البشم، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة، لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه الآم من قاتل غيره. يا بني: والله ما أدى حق الركوع والسجود ممثلي قط! ولا خضع لله ذو بطنة، والصوم مصحة والوجبات عيش الصالحين. يا بني: قد بلغت تسعين عاما ما نقص لي سن، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت ذنبن أنف، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، وما لذلك علة الا التخفف من الزاد. فان كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وان كنت تحب الموت فتلك سبيل الموت، ولا أبعد الله غيرك».. هذه وصية رجل لا يعرف عبادة الجسد التي تهوى

